علاقة التشاكل بين الشعر والنثر في عيار الشعر لابن طباطبا

رؤية نقدية

اعداد

د/عبدالله بن محمد بن على الغفيص

أستاذ الادب والنقد المشارك بقسم اللغه العربية وآدابها كلية اللغات والعلوم الإنسانية جامعة القصيم –بريدة المملكة العربية السعودية

المستخلص

تمثلت الرؤى النقدية في نقدنا العربي القديم التي دارت حول الشعر ومعايير ومقاييس نظمه وضبط بنيته شكلًا ومضمونًا، في كتب متعددة من تاريخ تلك الحقبة الزمنية، خاصة ما بين القرنين الثالث والسابع الهجري، بدءًا من طبقات فحول الشعراء ومرورًا بالرؤى النقدية في البيان والتبيين، والشعر والشعراء، وعيار الشعر، ونقد الشعر، والوساطة، والموازنة، والصناعتين، والعمدة، ودلائل الإعجاز، ومنهاج البلغاء وسراج الأدباء وغيرها. وكان لتلك الجهود النقدية دور بارز في تشكل وتطور الشعرية العربية القديمة، انعكس على ما أبدعه الشعراء من شعر عربي بلغ أوجه وقيمته الفنية العالية في تلك الحقبة الزمنية من العصر العباسي.

وكان من بين تلك الكتب النقدية التي كان لها أثر مهم في تشكل معالم هذه الشعرية، كتاب عيار الشعر لابن طباطبا العلوي (ت٣٢٢ه)، حيث احتل الكتاب منزلة عالية في النقد العربي القديم؛ لما تميز به من طريقة في مقاييسه النقدية، وعياره الشعري المتمثل في عقل المتلقي وقبوله لهذا الشعر الذي تحققت فيه تلك الشروط النقدية.

من هنا جاءت فكرة هذه الورقة العلمية للوقوف على علاقة التشاكل بين الشعر والنثر في هذا الكتاب، من خلال مساءلة تلك المقاييس النقدية التي تحدث عنها ابن طباطبا في هذا الكتاب؛ لبيان أوجه العلاقة بين الشعر والنثر وتجلياتها في رؤية هذا الناقد، عن مفهوم الشعر وحسن علته، وحديثه عن السرقات وضبطها، وتفصيله في بناء القصيدة ووحدتها ومعانيها، وما تضمنته تلك الرؤية من أراء ونظرات هي محل اشتغال هذه الورقة وفق منهج تحليلي واصف لتلك العلاقة التشاكلية بين الشعر والنثر أو بين القصيدة والرسالة بوجه أدق.

كلمات مفتاحية: الشعر والنثر، القصيدة والرسالة، الشعرية القديمة، ابن طباطبا، عيار الشعر.

المقدمة

تمثلت الرؤى النقدية في نقدنا العربي القديم التي دارت حول الشعر ومعايير ومقاييس نظمه وضبط بنيته شكلًا ومضمونًا، في كتب متعددة من تاريخ تلك الحقبة الزمنية، خاصة ما بين القرنين الثالث والسابع الهجري، بدءًا من طبقات فحول الشعراء ومرورًا بالرؤى النقدية في البيان والتبيين، والشعر والشعراء، وعيار الشعر، ونقد الشعر، والوساطة، والموازنة، والصناعتين، والعمدة، ودلائل الإعجاز، ومنهاج البلغاء وسراج الأدباء وغيرها. وكان لتلك الجهود النقدية دور بارز في تشكل وتطور الشعرية العربية القديمة، انعكس على ما أبدعه الشعراء من شعر عربي بلغ أوجه وقيمته الفنية العالية في تلك الحقبة الزمنية من العصر العباسي.

وكان من بين تلك الكتب النقدية التي كان لها أثر مهم في تشكل معالم هذه الشعرية، كتاب عيار الشعر لابن طباطبا العلوي (ت٣٢٢ه)، حيث احتل الكتاب منزلة عالية في النقد العربي القديم؛ لما تميز به من طريقة في مقاييسه النقدية، وعياره الشعري المتمثل في عقل المتلقي وقبوله لهذا الشعر الذي تحققت فيه تلك الشروط النقدية، وهو من الكتب النقدية التي بلغت درجة من "النضج والتكامل لم تتوفر في الكتابات السابقة عليه"(جابر عصفور ص٢٩) التي عالجت فن الشعر ومفهومه، من خلال رؤية لهذا الفن قائمة على الصنعة الشعرية، وتأثير ذلك على النظرة الموحدة للفن الأدبي شعرًا كان أو نثرًا، من خلال جدلية العلاقة بين الشعر وبين النثر متمثّلًا بالرسالة والخطبة والحكمة وغيرها.

من هنا جاءت فكرة هذه الورقة العلمية للوقوف على علاقة التشاكل بين الشعر والنثر في هذا الكتاب، من خلال مساءلة تلك المقاييس النقدية؛ لبيان أوجه العلاقة بين الشعر والنثر وتجلياتها؛ من أجل تتبع معالم تلك الشعرية القديمة في هذا الكتاب، التي كان من أبرز مقاييسها الحديث عن مفهوم الشعر وحده، وهذا ما دفع أحد النقاد المعاصرين وهو جابر عصفور للحديث عن معالم تلك الشعرية عند ثلاثة من نقاد العربية وهم: ابن طباطبا وقدامة بن جعفر وحازم القرطاجني، وذلك في كتابة (مفهوم الشعر).

وحديث ابن طباطبا في هذا الكتاب حديث نقدي معياري وصفي، يعطي أحكامًا عن الشعر الذي تناوله، فقد تناول ابن طباطبا في كتابه هذا عددًا من القضايا المتعلقة بالعملية الإبداعية الشعرية تنظيرًا وتطبيقًا، وما تضمنته تلك الرؤية من أراء ونظرات هي محل اشتغال هذه الورقة وفق منهج تحليلي واصف لتلك العلاقة التشاكلية بين الشعر والنثر أو بين القصيدة والرسالة بوجه أدق.

وقد جاءت هذه الورقة في مقدمة وستة مطالب تحدثت عن: (مفهوم الشعر، عله حسن الشعر، السرقات الشعرية، بناء القصيدة، الوحدة العضوية، معاني القصيدة) ثم خاتمة لأهم النتائج والتوصيات، يتلوها قائمة بمصادر ومراجع هذه الورقة العلمية.

المطلب الأول: مفهوم الشعر

ابتدأ ابن طباطبا كتابه عيار الشعر بالحديث عن مفهوم الشعر، ذلك أن الخوض في أي ظاهرة أدبية أوقضية نقدية تقتضي البدء بالتعريف لهذا المصطلح، وهذا ما فعله ابن طباطبا إذ نراه يعرف الشعر بأنه "كلامٌ منظومٌ، بائنٌ عن المنثور الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم، بما خُصَّ به من النظم الذي إنْ عُدل من جهته مجَّته الأسماع، وفسد على الذوق"[١]، وابن طباطبا في هذا التعريف أورد مصطلحًا في عمق مفهوم الشعرية العربية ألا وهو النظم، حيث جعله بديلًا عن الوزن والقافية، وهذا استعمال متقدم لمصطلح النظم الذي هو سر إعجاز القران، وقد استعمله عبدالقاهر الجرجاني (ت٤٧١ه) بعد ذلك وفصل القول فيه في كتابه دلائل الإعجاز. والنظم عند ابن طباطبا هو ما يختص به الشعر من الوزن والقافية والموسيقى الداخلية للتفعيلات داخل البيت، جاء بعده قدامة بن جعفر (ت٣٣٧ه) في كتابه نقد الشعر فعرف الشعر بأنه كلام موزون مقفى يدل على معنى، وبالنظر في هذين المفهومين للشعر نجد أن تعريف ابن طباطبا أدق وأعمق وأدخل في مفهوم الشعرية، وهو في هذا التعريف قد وضع حدًا فاصلًا بين الشعر والنثر؛ إذْ الشعر هو الجنس الأدبي الذي اختصَّ بالنظم دون غيره من الأجناس الأدبية الأخرى، وبهذا يتَّفق مع الكثير ممن وضعوا النثر الكامل في طرف، والشعر الكامل في الطرف الآخر المضاد، وبين القطبين تتقاسم الأنماط اللغوية الأخرى حظوظها من الشعرية[٢].

من خلال مفهوم الشعر لدى ابن طباطبا يمكن ملاحظة العلاقة الوجودية بين النثر والشعر، حيث لم يكن له أن يعرض تصوره لمفهوم الشعر، ويوضحه، ويبيّن حدَّه، دون استدعاء مفهوم النثر بوصفه أساس التعريف، وسبب وجوده. ولذلك فإن الشعر بالنسبة إليه ليس الكلام المنظوم فحسب، وإنما هو كذلك البائن عن المنثور، وكأن وصف الشعر بأنه نظمٌ للكلام ليس كافيًا لتمييزه والتعرف عليه، ولا وافيًا في إيصال المعنى المراد إيصاله، فاحتيج معه لرفد دلالته وتوكيدها، إلى وصفه بأنه أيضًا البائن عن المنثور. يظهر من ذلك أن تصوُّر مفهوم الشعر لديه لم يكن ممكنًا ابتداءً على المستوى الذهني، لو لم يكن معنى النثر ومفهومه مستقرًّا في ذهنه وفي ذهن المتلقي، أي أن النثر هنا يقدم نفسه أصلًا مجرَّدًا للشعر وأساسًا له.

غير أنه حين اكتفى بأن الشعر كلامٌ منظومٌ بائنٌ عن المنثور، ورأى أن الطريقة التي يمكن بها قول الشعر وتلقيه هي طريقة النظم؛ جعل من النظم أي الوزن والقافية الخاصية الوحيدة التي تفرقه عن النثر، وهذا ليس على إطلاقه، حيث لا يمكن للكلام أن يكون شعرًا بمجرد ضبط أوزانه وقوافيه مثل المنظومات العلمية، كما يمكن للكلام المنثور أن يكتسب بعض السمات الشعرية من كثافة لغوية ومشاكلة وانسجام واتساق وغير ذلك دون وزنه وتقفيته.

على الرَّغم مما يبدو في رؤية ابن طباطبا من فصل بين الشعر والنثر بالتفريق بينهما بخاصية النظم، إلا أنه يترك الباب مواربًا أمام مقاربة شعرية أكثر مرونة عندما يقيّد النثر الحاضر في تعريفه بأنَّه النثر "الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم"، أيْ أنَّه ليس كل النثر وإنما نثرُ محدَّدٌ واضح المعالم، وهو النثر الدارج الذي يستعمله النَّاس في حياتهم اليومية، وليس النثر الفني كالرسائل والخطب والحكم وغيرها، وهذا قد يمثل مدخلًا ملائمًا لفهم بعض آراء ابن طباطبا النقدية خاصة ما تعلَّق منها بتداخل الشعر بالنثر، إذْ بقدر ما يستبعد نثرًا من دوائر الشعرية بطريقة صارمة، فإنَّه يُدني نثرًا آخر ويمركزه في منطقة يتداخل فيها الجنسان الأدبيان، فالنظم -ولا جدال على أهميته- ليس شرط الشعرية الوحيد.

---

[١]- عيار الشعر، محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي، تحقيق د. عبدالعزيز بن ناصر المانع، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، ط١، ١٤٠٥ه-١٩٨٥م، ص٥.

[٢]- ينظر: في الشعرية العربية، قراءة جديدة لعيار الشعر لابن طباطبا، مقال، طراد الكبيسي، مجلة المورد، المجلد ١٩، العدد١، ١٩٩٠م، ص٢٢.

حين نفهم النثر الوارد في تعريف ابن طباطبا للشعر بصفته الاستعمالية الدارجة، التي تعزله في خانة النثر المتداول في مخاطبات عامَّة الناس، يمكن ملاحظة عدم وجود حدود معنوية واضحة بين الشعر والنثر وفق تصوره لهما، حيث يتداخلان في منطقة متسمة بالشعرية، وغير مستسلمة لشرط النظم وحده. صحيح أنه اشترط النظم ليتحول الكلام إلى شعر، لكنه في الوقت نفسه كان مرنًا بحيث أبقى على مساحة شعرية فارغة، مرشحة للامتلاء، بين الشعر والنثر. ظهر ذلك في سك مفهوم الشعر، كما ظهر في مواضع أخرى كان التماس فيها بين الجنسين جليًّا من حيث تجاذبهما واشتراكهما في السمات الشعرية.

المطلب الثاني: علة حسن الشعر

رأى ابن طباطبا علة حسن الشعر وسبب جماله وجودته وإحكامه، التي تثلج صدر المتلقي وتسره وتسعده؛ في صدق وروده ليس نظمًا فحسب، بل ونثرًا كذلك، إذ يقول: "فإذا صدق ورود القول نثرًا ونظمًا أثلج صدره"[١]؛ أي صدر المتلقي. كما رأى أن معيار الشعر المحكم المتقن أنيق اللفظ حكيم المعنى عجيب التأليف، أنه إذا انتقض نظمه ونثرت ألفاظه، حافظ على جودته وسماته الأدبية العالية، ولم يتغير فيه شيء غير النظم، فأجمل الأشعار لديه "أشعارٌ محكمةٌ متقنة، أنيقةُ الألفاظ، حكيمةُ المعاني، عجيبةُ التأليف، إذا نُقضت وجُعلت نثرًا لم تبطل جودة معانيها، ولم تفقد جزالة ألفاظها"[٢]؛ أيْ أنه يؤكد على إمكانية أن يأخذ الشعر من النثر، وأن يُحلَّ الشعر فيصبح نثرًا وفق مفهومه، غير أن الشعر الذي يمكن فيه ذلك شعر مخصوص بسمات محددة، وفي هذه المنطقة يلتقي الفنان إذا صدقا في قوة الأثر في النفس المتلقية[٣]، فتفاوت الشعر من حيث الجودة والرداءة يختلف باختلاف المعاني وباختلاف ردود أفعال النفس الإنسانية، وهذا فهم متقدم لطبيعة الشعر وتذوقه والحكم عليه.

وهنا موضع تساؤل، عن أي نثر يتحدث ابن طباطبا عندما يصف الشعر المحكم بالنثر السهل المنتظم في معرض كلامه عن الأشعار المحكمة، يقول: "فمن الأشعار المحكمة المتقنة المستوفاة المعاني، الحسنة الوصف، السلسة الألفاظ، التي قد خرجت خروج النثر سهولة وانتظامًا"[٤]، ويستشهد في هذا الموضع، بقول زهير:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولًا لا أبا لك يسأم[٥]

وبقول أبي ذؤيب:

أمن المنون وريبها تتوجع والدهر ليس بمعقب من يجزع[٦]

نجد أنه في هذه الرؤية يلتقي مع جان كوهن الذي أسمى مثل هذا الشعر بالقصيدة الدلالية التي لا تعتمد إلا على الدلالة، وهذا القصيد أخرجه حازم القرطاجني من خانة الشعر ووضعه في خانة

---

[١]- ابن طباطبا، ص٢٢.

[٢]- نفسه، ص١١.

[٣]- ينظر: نقد الشعر بين ابن قتيبة وابن طباطبا العلوي، د. عبدالسلام عبدالحفيظ عبدالعال، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٨م، ص٦٣٦.

[٤]- ابن طباطبا، ص٨٢.

[٥] - المعلقات السبع برواية أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري، إعداد ومراجعة عبدالعزيز محمد جمعة، ط١، مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، ٢٠٠٣م، ص٥٥.

[٦] - ديوان الهذليين، ترتيب وتعليق محمد محمود الشنقيطي، ط١، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٥، القسم الأول، ص١.

النثر وإن كان موزونًا مقفى[١]. ويجب عدم فصل هذا الشاهد من كلام ابن طباطبا عن تصوره العام للعلاقة بين الشعر والنثر الظاهر في حدّه للشعر وغيره، لذلك ليس النثر الذي تحدث عنه هنا إلا النثر الذي تحدث عنه في مواضع مختلفة، وهو النثر الفني لا نثر عامة الناس.

ومن عله حسن الشعر لديه أن يكون شعر الشاعر المحدث وفق سنن العرب في الوصف والتشبيه وتمثل البيئة والمثل الأخلاقية؛ ليجيء شعره كأشعارهم،[٢] إلا أن هذه الدعوة من ابن طباطبا لا تعدو ان تكون مرحلة أولى، هي مرحلة الاستعداد والتثقيف والدرس والتحصيل، لأنه سيعتمد بعد ذلك على طريقة تبتعد عن الطبع وتتجه للصنعة وجيشان الفكر القائم على الوعي التام المطلق في بناء القصيدة، التي أولى خطواتها تمخيض المعنى في الذهن نثرًا، ومن ثم صياغتها بألفاظ متطابقة معتمدة على التنسيق والتنظيم والحذف وإعادة البناء.[٣]

المطلب الثالث: السرقات الشعرية

يؤكد ابن طباطبا أثناء حديثه عن السرقات الشعرية على أحقية الشاعر باستلهام المعنى من النصوص الشعرية من خلال الاطلاع عليها وحفظها وتقليب النظر في معانيها وأخذ اللطيف منها وتقديمه في حلة لفظية مبتكرة، وحق الشاعر غير مقتصر على الشعر، بل يتجاوزه إلى النثر حيث يحق للشاعر أيضًا أن يأخذ المعاني التي يشاء من النصوص النثرية، "وإن وجد المعنى اللطيف في المنثور من الكلام، أو في الخطب والرسائل فتناوله وجعله شعرًا كان أخفى وأحسن"[٤].

بصرف النظر عن رأي ابن طباطبا الذي يبدو مؤيدًا لأخذ المعاني بشرط أن تقدم بطريقة خفية عصية على التتبع والاكتشاف، ما يوحي بأن المعضلة ليست في أخذ المعنى وإنما في اكتشاف عملية الأخذ، إلا أنه لا يمكن تناول رأيه بمعزل عن مفهوم الشعر وتعريفه لديه من الأساس؛ لأنه لا يرى فروقًا واضحة بين الشعر والنثر غير النظم، مما أفضى لخلق منطقة يلتقي فيها الجنسان الأدبيان بتحقق اشتراطات شعرية أخرى، لم يقتصر استلهام المعنى لديه على النص الشعري، بل نص على المنثور كذلك، وهذا الرأي متوائم مع مفهوم التناص في الدراسات النقدية الحديثة.

ثم إن في كلامه تأكيدٌ لمدلول النثر عنده حين يقول: إن وجد المعنى اللطيف في المنثور من الكلام، أو في الخطب والرسائل، وفي حرف العطف (أو) تفريق جلي بين النثر بمعناه الدارج المتداول بين الناس، والنثر الفني المتمثل بالخطب والرسائل وغيرهما.

المطلب الرابع: بناء القصيدة

يتصور ابن طباطبا أن بناء القصيدة وصناعتها ليس إنتاجًا إبداعيًّا مباشرًا وإنما عملية تُنجز على مراحل عدة من الإعداد إلى الإنتاج، الأولى منها مرحلة كون القصيدة جنينًا نثريًّا ذهنيًّا يفكر به المبدع بمعزل عن صياغته الشعرية، والمرحلة الثانية مرحلة اختيار الألفاظ المطابقة للمعنى الذهني النثري، والثالثة مرحلة اختيار القافية والوزن وغيرها، يقول ابن طباطبا: "فإذا أراد الشاعر بناء قصيدة مخض المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره نثرًا، وأعد له ما يلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه، والقوافي التي توافقه، والوزن الذي يسلس له القول عليه..."[٥].

---

[١]- ينظر: في الشعرية العربية، طراد الكبيسي، مرجع سابق ص٢٢.

[٢] - ينظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، نقد الشعر، من القرن الثاني وحتى القرن الثامن الهجري، إحسان عباس، ط٤، دار الثقافة، بيروت، ١٤٠٤ه، ص ١٣٤-١٣٥.

[٣] - ينظر: المرجع السابق، ص ١٣٦.

[٤]- عيار الشعر، ص١٢٦.

[٥]- عيار الشعر، ص٧.

فابن طباطبا قد حدد "في هذا النص شروط الإبداع وشروط الصنعة، وهو يطرح قضية التخطيط للقصيدة، ثم يتعرض إلى قضية التنفيذ، وقد أشار إلى أهم العناصر التي تشكل الأدوات الهامة في عملية النظم، وهي اللفظ والمعنى، والوزن والقافية، ومدى تطابق هذه العناصر بعضها مع بعضها الآخر؛ لإعطاء عمل إبداعي متناسق البناء شكلًا ومضمونًا"[١]

وقد عد د. عز الدين إسماعيل قول ابن طباطبا أحسن قول فصل في خطوات خلق القصيدة إذ يقول "ولم أجد فيما قرأت من النقد العربي من وصف هذه العملية وصفًا مفصلًا كابن طباطبا، ومهما يكن في تصوره من عيب، فإنه التصور الذي يتفق ومفهوم الصنعة السائد في الأدب العربي، فهكذا كانت تفهم صناعة الشعر، وهو فهم يقوم على العناية بالشكل دون المحتوى، ولعمل الشكل الجميل طريقة خاصة هي التي وصفها ابن طباطبا"[٢]

ووفق تصور ابن طباطبا، فإن المرحلة الأولى من مراحل بناء القصيدة مرحلة نثرية بحتة، والثانية كذلك على اعتبار أن مرحلة إلباس المعنى الألفاظ المناسبة لا تزال مرحلة نثر متقدمة على مرحلتي التقفية والوزن، ما يعني أن تداخل الشعر والنثر في منطقة شعرية بينية لا يقتصر على مفهوم الشعر المجرد وتعريفه النظري، وعلة حسن الشعر، وحدود أخذ المعنى، وإنما يترحل لدى ابن طباطبا إلى تصوره التطبيقي كذلك، حيث بين الصلة التي يعقدها بين الشعر والنثر، فقد جعل النثر أهم مرحلة لإرساء قواعد الشعر وبنائه، إلا أن عملية الصناعة الشعرية التي يدعو إليها ابن طباطبا صراحة في مثل هذا القول، تغفل الحديث عن مسألة الطبع والموهبة في قول الشعر وإنشائه، فالشاعر حسب مفهوم الصنعة لابن طباطبا يفكر نثرًا ويأتي بمعانيه من النثر ليصوغها شعرًا، فابن طباطبا لا يلحظ التباين في بنية المعنى بين الصيغة الشعرية والصيغة النثرية، فالمعنى عنده نثري في كل حال، ولذلك فإن هذا التوحيد الذي أقره بين المعنى الشعري والمعنى النثري جعله يقارب في رؤيته ما بين القصيدة والرسالة، يقول إحسان عباس " أما ابن طباطبا فمحا الفروق بين القصيدة والرسالة النثرية في البناء والتدرج واتصال الأفكار"[٣]

ولكن يظل هناك فرق في رؤية ابن طباطبا بين القصيدة التي اشترط فيها الوحدة العضوية في انتظام أولها باخرها..، وبين نوع من الرسائل لا تعتمد فيه وحدة البناء، فيكون كل فصل قائم بنفسه.

ويرى البعض -وفي رأيهم وجاهة- أن في استحضار المعنى في الفكر نثرًا، ثم صياغته شعرًا، ما يجافي الحق الدقيق؛ إذْ الفنية ترى اختلافًا ما بين المعنى المصوغ في العبارة النثرية، والمعنى المصوغ في البيت الشعري، بناء على أن كل عبارة تتضمن معنى لا تشاركه فيه عبارة أخرى مشاركة تطابقية، وأن كل جملة لابد أن تختلف عن الجمل الأخرى، مهما بدا -في الظاهر- من تقاربها[٤]، إلا أن الهدف ليس بيان صواب رأي ابن طباطبا من عدمه، وإنما التوصل إلى مقاربة ملائمة لتصوره لمفهوم الشعر وعلاقته وتداخله بالنثر، وهو تداخل بيّن.

المطلب الخامس: الوحدة العضوية

جاء حديث ابن طباطبا عن الوحدة العضوية في عيار الشعر ليؤسس نظرة كلية للشعر ووحدته الفنية، وقد تجلت تلك الوحدة في تضاعيف الكتاب، إذ نراها في حديثه عن مفهوم الشعر والأدوات التي يجب على الشاعر أن يتقيد بها، وفي حديثه عن الصنعة الشعرية وترابط أبيات القصيدة واتصال أجزائها، إذ يعد أول من فصل في الوحدة العضوية ورسم خطوطها العريضة، وقد أكد كثير

[١] - الشعرية العربية، نور الدين السد، ط١، ديوان المطبوعات، الجزائر، ١٩٩٥م، ص٥١.
[٢] - الأسس الجمالية في النقد العربي، عز الدين إسماعيل،ط١، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٢م، ص١٨٥-١٨٦.
[٣] - تاريخ النقد الأدبي عند العرب، نقد الشعر، من القرن الثاني وحتى القرن الثامن الهجري، ص١٣٧.
[٤]- ينظر: نقد الشعر بين ابن قتيبة وابن طباطبا العلوي، ص٢٠٥-٢٠٦.

من النقاد على أن رأي ابن طباطبا في الوحدة من أفضل الآراء النقدية التي راعت وفصلت القول في التجانس في الشعر وحسن نظمه، وفي ذلك يقول بدوي طبانة "ولعل من أقدم ما أثر عن النقاد العرب وأكثره صراحة ووضوحًا في النظرة الكلية للشعر وفي ضرورة مراعاة الوحدة والتجافي بين أبيات القصيدة، ما قاله ناقد كبير معدود في طليعة النقاد العرب، هو ابن طباطبا العلوي"[١]

وفي ذات السياق يقول عيسى العاكوب "ولا يكاد المرء يظفر في التراث النقدي قبل ابن طباطبا بتصور لبناء القصيدة بوصفها كلًا موحدًا"[٢]

ويؤسس ابن طباطبا رؤيته النقدية الرائدة، للقصيدة الجيدة على أساس وحدتها العضوية التي تبدأ من أولها حتى نهايتها، وما بين البداية والنهاية من صلات وإحكام صياغة وحسن تخلص وغير ذلك، ونراه يؤكد على فكرة ارتباط الشعر بالنثر، فبعد أن حث الشاعر في صياغته للقصيدة على تمخيض المعنى في الذهن نثرًا، هاهو يدعو إلى أن يحتذي الشاعر طريقة أصحاب الرسائل في كتابتهم، ويؤكد أن على الشاعر أن "يسلك منهاج أصحاب الرسائل في بلاغاتهم، وتصرفهم في مكاتباتهم، فإن للشعر فصولًا كفصول الرسائل"[٣]، نلحظ هنا إشادته بالرسائل كونها المثال الذي يحتذى في هيكلة الشعر وبنائه، وهنا نتساءل ما الذي دفع ابن طباطبا لمقارنة بنية القصيدة ببنية الرسالة؟ ألم يكن الأولى أن يقارن الشفوي بالشفوي (القصيدة بالخطبة) بدلًا من أن يقارن الشفوي بالمكتوب؟ خصوصًا أن بين القصيدة والخطبة اشتراك في الأقاويل كالتخييل مثلًا، والإجابة عن هذا تتمثل في أن ابن طباطبا عاش في مرحلة من تاريخ الأدب تقلصت فيه الخطابة، وكانت الرسائل الفن النثري المزدهر السائد حينئذ، كما أنه يوازن بين الشفوي والمكتوب؛ ليبين أنه وإن تباعدت مقامات التواصل فإن وراء هذين الجنسين بلاغة واحدة؛ لكنه في موضع آخر يشير للخطابة البليغة إذ يقول "إنك إذا فتشت أشعار الشعراء كلها وجدتها متناسبة، إما تناسبًا قريبًا أو بعيدًا، وتجدها مناسبة لكلام الخطباء، وخطب البلغاء، وفقر الحكماء"[٤]، وهي الوحدة التي عناها أبوعلي الحاتمي بعد ذلك بقوله "مثل القصيدة مثل الإنسان في اتصال بعض أجزائه ببعض فمتى انفصل واحد عن الآخر، وباينه في صحة التركيب غادر الجسم ذا عاهة، تتخون محاسنه وتعفى معالمه، فقد وجدت حذاق المتقدمين وأرباب الصناعة يحترسون في مثل هذه الحالة احتراسًا شديدًا يجنبهم شوائب النقصان، ويقف بهم على محجة الإحسان، حتى يقع الاتصال ويؤمن الانفصال، وتأتي القصيدة في تناسب صدورها وأعجازها وانتظام نسيبها بمديحها كالرسالة البليغة، والخطبة الموجزة لا ينفصل جزء منها عن جزء"[٥].

ولعل التساؤل المهم هنا، ماذا قصد ابن طباطبا بالرسائل والخطب والحكم التي يفترض بالشاعر أن يسلك منهاج أصحابها إذا أراد قول قصيدة جيدة؟ وتتضاعف أهمية التساؤل عندما يقول ابن طباطبا في موضع آخر عن تأليف الشعر، إن "أحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظامًا يتسق به أوله مع آخره على ما ينسقه قائله، فإن قُدم بيتٌ على بيت دخله الخلل كما يدخل الرسائل والخطب إذا نُقض تأليفها، فإن الشعر إذا أُسس تأسيس فصول الرسائل القائمة بنفسها، وكلمات الحكم المستقلة بذاتها، والأمثال السائرة الموسومة باختصارها، لم يحسن نظمه"[٦]، فهل في أقواله بعض التناقض؟

تأتي رؤية ابن طباطبا لعلاقة الشعر بالرسائل والخطب والحكم في سياقها الطبيعي والمتوقع، أي أنها امتدادٌ لطبيعة العلاقة لديه بين الشعر والنثر، سواء ظهرت تلك العلاقة أثناء عرضه لمفهوم

---

[١] - قضايا النقد الأدبي، بدوي طبانة، ط٣، دار المريخ، الرياض، ١٩٨٤م، ص٩٦.
[٢] - التفكير النقدي عند العربي، عيسى علي العاكوب، ط١، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٧م، ص١٩٧.
[٣]- عيار الشعر، ص٩.
[٤]- المصدر السابق، ص١٢٧.
[٥]- زهر الآداب وثمر الألباب، إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، ج٣، ط١، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م، ص٢٤.
[٦]- عيار الشعر، ص٢١٣.

الشعر أم بناء القصيدة أم في غيرها من قضايا الشعرية في كتابه، وفيها يفرق بين النثر الدارج في كلام عامة الناس من جهة والنثر الفني في الرسائل والخطب وغيرهما من جهة أخرى، وهو هنا كذلك يفرق بين رسائل تترابط فيها الفصول وتتلاحم وتتسلسل وتتسم بالوحدة العضوية دعا الشعراء إلى احتذائها، ورسائل قد انتقض تأليفها وتفككت مكوناتها وغابت وحدتها، فإذا أسس الشعر تأسيسها لم يحسن نظمه.

المطلب السادس: معاني القصيدة

في معرض حديث ابن طباطبا عن المعاني التي سبق إليها الشاعر وحسن تناوله لها قال: " وإن وجد المعنى اللطيف في المنثور من الكلام، وفي الخطب والرسائل والأمثال، فتناوله وجعله شعرًا كان أخفى وأحسن ... قيل للعتابي: بماذا قدرت على البلاغة؟ فقال: بحل معقود الكلام، فالشعر رسائل معقودة والرسائل شعر محلول"[١]، حديث ابن طباطبا في صدر المقولة جلي وواضح، إلا أن في استشهاده بكلام العتابي في هذا السياق شيء من الاضطراب في الاستشهاد والتوظيف، أدى إلى اضطراب في فهم بعض النقاد المعاصرين لراي ابن طباطبا.[٢]

فهو يشير في بداية المقولة إلى وجوب الاستفادة من معاني النثر وتضمينها في الشعر، وهذا عنده دليل براعة وحسن تفنن، ويستأنس لذلك بقول العتابي عندما سئل، بماذا قدرت على البلاغة ؟ فقال: بحل معقود الكلام.

إلا أن قول العتابي هذا لا يشير إلى استفادة الشعر من النثر، وتضمين المعنى النثري في الشعر، بل يشير في الحقيقة إلى أخذ المعنى من الشعر ألى النثر؛ ليتضح ما غمض منه، فحل معقود الكلام لا يشير إلا إلى ذلك.

ونحن إذا تأملنا قول ابن طباطبا الذي جاء بعد استشهاده بكلام العتابي مباشرة، وذلك في قوله:" فالشعر رسائل معقودة والرسائل شعر محلول" تأملًا دقيقًا، وأرجعنا البنية المكونة لتلك المقولات إلى معانيها اللغوية والبلاغية، تبين لنا دلالة مغايرة للدلالة المباشرة لتلك المقولات.

فالعتابي لم يقدر على البلاغة ويصبح بليغًا لأنه صير الشعر نثرًا، أو لأنه نقل المعنى من النثر إلى الشعر؛ بل لأنه وضح غامض الكلام، والدلالة اللغوية تشير إلى ذلك صراحة، فحل معقود الكلام معناها توضيح غامضه[٣]، وهذا دليل على الفصاحة والإبانة اللتين هما عنوان البلاغة.

وفي ضوء ذلك لا تكون دلالة مقولة ابن طباطبا " الشعر رسائل معقودة والرسائل شعر محلول" بأن الشعر شبيه بالرسائل، لكنه معقود بالوزن والقافية، والرسائل شبية بالشعر، لكنها محلولة ومنفكة عن الوزن والقافية، وإنما تكون دلالتها المتوائمة مع السياق والاستشهاد بكلام العتابي، أن الشعر يشبه الرسائل، فهو أشبه ما يكون بالرسائل الغامضة، حيث أن الغموض مميز لبنية الشعر، والرسائل تشبه الشعر، فهي أشبه ما تكون بالشعر الواضح، حيث أن الوضوح مميز لبنية الرسالة.

ولنا في رسالة الصابي في الرد على من سأله عن الفرق بين الشاعر والمترسل، التي بين فيها الفرق بين بنية الشعر وبنية الرسالة في التعبير عن المعاني، معتبرًا الغموض مميز للشعر، والوضوح مميز للرسالة، مستند نستند إليه في الفهم لدلالة السياق لمقولة ابن طباطبا.[١]

---

[١] - المصدر السابق، ص١٢٦-١٢٧.

[٢] ينظر: النقد الأدبي عند العرب واليونان معالمه وأعلامه، د. قصي الحسين، ط١، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، ٢٠٠٣م، ص ٣٨٧.
وكذلك: النقد الأدبي في آثار أعلامه، د. حسن الحاج حسن، ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٦م، ص ٢١٣.

[٣] - ينظر: المعجم الوسيط، ط٣، طبعة مجمع اللغة العربية، القاهرة، مادة "حل" ج١، ص٢٠٠-٢٠١، وفي مادة "عقد" ج٢، ص٦٣٦-٦٣٧.

كذلك ما أشار إليه أبو هلال العسكري في حديثه عن معنى المعقود والمحلول، فمعناهما عنده أنك إذا ابتدأت مخاطبة ثم لم تنته إلى موضع التخلص مما عقدت عليه كلامك سمي الكلام معقودًا، وإذا شرحت المستور وأبنت عن الغرض المنزوع إليه سمي الكلام محلولًا.[٢]

بهذه الرؤى النقدية لمواضع التداخل بين الشعر والنثر تشاكلًا وتباينًا في هذه المقاييس النقدية التي حددت مفاهيم ابن طباطبا لطبيعة الشعر وعلاقاته ومعيار تلقيه، في كتاب عد من أوائل الكتب التي رسمت معالم الشعرية العربية في نقدنا العربي القديم، نكون قد وصلنا إلى نهاية هذا العرض المركز لطبيعة تلك العلاقة في هذه الورقة العلمية.

الخاتمة

في ختام هذه الورقة التي تناولت العلاقة بين الشعر والنثر عمومًا، وبين القصيدة والرسالة على وجه أخص تشاكلًا وتباينًا، من خلال رؤية نقدية قديمة كان لها حضورها البارز والمؤثر في رسم ملامح الشعرية العربية القديمة التي تبحث في القوانين المتحكمة في إنشاء النص الأدبي، نشير هنا إلى أهم النتائج والتوصيات التي توصلت لها هذه المقاربة النقدية، والمتمثلة في الآتي:

١- بلغ كتاب ابن طباطبا درجة من النضج والتكامل لم تتوفر في الكتب السابقة عليه، حيث يعد رائدًا في رؤاه النقدية المتعلقة بمفهوم الشعر وبناء القصيدة ووحدتها وغيرها من تلك المقاييس.

٢- يعد ابن طباطبا أول من جعل حد الشعر في مسألة النظم، وهذا أمر لم يسبق إليه في رؤى النقاد السابقين عليه حول مفاهيم الشعر والنثر.

٣- يبدو أن ابن طباطبا وإن كان رائدًا في بعض الرؤى، إلا أنه متأثر بابن قتيبة في مقدمة كتاب الشعر والشعراء، عندما تحدث عن علة حسن الشعر وشروط ومواصفات الشاعر والأحوال التي تعين على قول الشعر ونظمه.

٤- رأي ابن طباطبا في السرقات الشعرية يبدو مؤيدًا لأخذ المعاني من القصائد الأخرى، بشرط أن تقدم بطريقة خفية عصية على التتبع والاكتشاف، وهذه الرؤية قريبة من مفهوم التناص في النقد الأدبي الحديث.

٥- دقة ذوق ابن طباطبا في نظرته للقصيدة والرسالة وما بينهما من صلات وتقاطع، إذ لم يهتم بالقصيدة في صورتها الكلية فقط، وإنما عمد إلى التنبيه إلى ضرورة التدقيق في الجزئيات، من خلال حديثه عن الأبيات الشعرية وفصول الرسائل في بنياتها الجزئية.

٦- حديث ابن طباطبا عن الوحدة العضوية في القصيدة، يعد من أدق الأقوال وله سبق الريادة في تلك الرؤية التي أشاد بها النقاد ممن جاء بعده وحتى عصرنا الحاضر، وهو في حديثه عن الوحدة ينسف تلك المقولات الشعرية التي تتمسك بوحدة البيت في القصيدة العربية القديمة.

---

[١] - ينظر: الرسائل الأدبية من القرن الثالث إلى القرن الخامس الهجري، د. صالح بن رمضان، منشورات كلية الآداب بمنونة، تونس، ٢٠٠١م، ص ٢٣٧.

[٢] - ينظر: الصناعتين، لأبي هلال العسكري، تحقيق مفيد قميحة، ط١، دار الكتب العلمية، ١٤٠١ه، ص٥٠٠.

لذلك فإن من أهم التوصيات التي توصي بها هذه الورقة تتمثل في أهمية دراسة معالم الشعرية القديمة وتقاطعاتها مع الشعرية الحديثة، حيث القوانين التي تحكم بناء النص الأدبي وتميزه عن غيره من بقية مستويات الخطاب، والبحث عن أهم الرؤى النقدية المتشاكلة والمتباينة بين تلك الرؤيتين؛ لتشكيل موقف نقدي عربي يفيد من رؤى نقاد العربية في نقدنا القديم، كما يفيد من أراء النقاد الغربيين في مناهجهم النقدية المعاصرة.

المراجع والمصادر :

١) عيار الشعر، محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي، تحقيق د. عبدالعزيز بن ناصر المانع، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، ط١، ١٤٠٥ه-١٩٨٥م.

المراجع:

١) الأسس الجمالية في النقد العربي، عز الدين إسماعيل،ط١، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٢م.
٢) تاريخ النقد الأدبي عند العرب، نقد الشعر، من القرن الثاني وحتى القرن الثامن الهجري، إحسان عباس، ط٤، دار الثقافة، بيروت، ١٤٠٤هـ.
٣) التفكير النقدي عند العربي، عيسى علي العاكوب، ط١، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٧م.
٤) ديوان الهذليين، ترتيب وتعليق محمد محمود الشنقيطي، ط١، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٥، القسم الأول.
٥) الرسائل الأدبية من القرن الثالث إلى القرن الخامس الهجري، د. صالح بن رمضان، منشورات كلية الآداب بمنونة، تونس، ٢٠٠١م.
٦) زهر الآداب وثمر الألباب، إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، ج٣، ط١، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢١ه-٢٠٠١م.
٧) الشعرية العربية، نور الدين السد، ط١، ديوان المطبوعات، الجزائر، ١٩٩٥م.
٨) الصناعتين، لأبي هلال العسكري، تحقيق مفيد قميحة، ط١، دار الكتب العلمية، ١٤٠١هـ.
٩) قضايا النقد الأدبي، بدوي طبانة، ط٣، دار المريخ، الرياض، ١٩٨٤م.
١٠) المعجم الوسيط، ط٣، طبعة مجمع اللغة العربية، القاهرة، مادة "حل" ج١، وفي مادة "عقد" ج٢.
١١) المعلقات السبع برواية أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري، إعداد ومراجعة عبدالعزيز محمد جمعة، ط١، مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، ٢٠٠٣م.
١٢) النقد الأدبي عند العرب واليونان معالمه وأعلامه، د. قصي الحسين، ط١، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، ٢٠٠٣م.

١٣) النقد الأدبي في آثار أعلامه، د. حسن الحاج حسن، ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٦م.

١٤) نقد الشعر بين ابن قتيبة وابن طباطبا العلوي، د. عبدالسلام عبدالحفيظ عبدالعال، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٨م.

المجلات:

- في الشعرية العربية، قراءة جديدة لعيار الشعر لابن طباطبا، مقال، طراد الكبيسي، مجلة المورد، المجلد ١٩، العدد١، ١٩٩٠م.